

الفصل الخامس

بعض مواقع مابعد النبي

النظام الدفاعي الحدودي للروم والفرس :

مر معنا ان ابا بكر رضي الله عنه اصر على محاربة المرتدين حتى يؤدوا ماكانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم . وقد اطاعه المسلمون بذلك ، وانجز هذه المهمة ، ووطد اركان الاسلام في الجزيرة العربية . وهذه الفترة هي في الواقع جزء من عهد النبوة الذي اقام قاعدة الانطلاق لتغيير الطور الانساني ، ودفع جملة المجتمعات الانسانية إلى الطور الأعلى ، وصاغ عقيدة الجهاد ، لالقيام بهذه المهمة فقط ، بل لتكوين اخوة انسانية تصد القهر وتسعى في سبل التقدم الروحي والمادي ابد الدهر . وقد دامت حروب الردة اقل من تسعة اشهر . واعقبها مباشرة الخروج إلى العالم لاقامة دار السلام .

ويجدربنا قبل تناول معركة اليرموك الحاسمة ، ان لنقي نظرة على النظام الدفاعي لحدود الامبراطوريتين الفارسية والرومية المطللة على الصحاري العربية . فمن المعلوم أن الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين هذه التخوم (التي تشكل في الواقع نخوم الهلال الخصيب) وبين الجزيرة العربية قديمة قدم المدنيات الانسانية في هذا الهلال . وعند قيام الامبراطوريتين المذكورتين وضعت كل واحدة منهما على حدودها الصحراوية سلسلة قلاع واقامت فيها حاميات دائمة من جيشها النظامي . وكانتا تستفيدان بطبيعة الحال من الموجود من المواقع الدفاعية التي بناها الانسان هناك بقصد الدفاع ضد الغارات العدو ، لا سيما منها غارات بدو الصحارى . وقد رأينا فيما سبق من البحث أن الصحراء العربية كانت بمثابة «البحر» الذي ترد منه بقوافل

العرب مجارة اسيا الجنوبية وافريقيا الشرقية إلى الهلال الخصيب، ومنه إلى بلاد الامبراطوريتين المذكورتين. وتصب فيه كذلك سلع هاتين الامبراطوريتين لتحملها القوافل العربية على خطوطها التجارية في الجزيرة العربية إلى المناطق الأنفة الذكر من آسيا وافريقية. فكانت حدود الامبراطوريتين على الصحراء اذن ثغوراً تنشط فيها الحركة التجارية ويتكاثف فيها السكان الذين كانت سويتهم المعيشية مرتفعة. وكان هؤلاء السكان خليطاً من العرب الذين توضعوا فيها عبر العصور آتين من الجزيرة العربية، ومن ابناء عمومتهم سكان الهلال الخصيب. وقد قامت ممالك عربية غنية وقوية على تلك الحدود، ولكنها خضعت (مع غناها وقوتها) للامبراطوريتين المذكورتين، وبعبارة اخرى، كان غناها وقوتها جزءاً من النظام العالمي حينذاك الممثل بالامبراطوريتين، الرومية والفارسية في منطقة البحر الأبيض المتوسط. ومن تلك الممالك: مملكة تدمر والبتراء والغساسنة والمناذرة. وكانت كل من الامبراطوريتين تستفيد من المملكة العربية الموجودة على حدودها لضمان الهدوء هناك، وبالتالي ضمان استمرار الحركة التجارية من وإلى الصحراء بشكل طبيعي ما امكن. ثم (وهذا هام جداً) مد نفوذ الامبراطورية إلى عرب الصحاري العربية ومدن الجزيرة العربية، بما لدولة الحدود من قرابات وصلات في تلك المناطق البالغة الأهمية من الناحية الاقتصادية. يضاف إلى هذا أن الروم كانوا يستخدمون مثلاً الغساسنة لمحاربة الفرس، بينما يستخدم هؤلاء المناذرة لحرب الروم. وفي الأحوال العادية كانت القوات العسكرية للغساسنة والمناذرة تشكل رديفاً كبيراً للحاميت الرومية أو الفارسية الموجودة على الحدود الصحراوية. ففي غزوة مؤتة مثلاً كان معظم جنود جيش الروم من عرب الغساسنة. وما كانت تلك الدول العربية التابعة وحدها في النظام الدفاعي لحدود الامبراطوريتين. لقد كان قيصر أو كسرى يقطع بعض القبائل العربية قرى حدودية لغرض تعزيز امن حدود امبراطوريته على الصحراء. فنقرأ مثلاً في الأغاني عن وقعة ذي قار* : « . . . ودعا كسرى اياس بن قبيصة الطائي وكان عامله على عين الثمر وما والاها إلى الحيرة. وكان كسرى قد اطعمه ثلاثين قرية على شاطئ الفرات . . . »

ونقرأ ايضاً في ذات الفصل من الأغاني* : « . . . فلما هلك النعمان جعلت بكر

* ج ٢٠ ص ١٣٢

بن وائل تغير على السواد فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد إلى كسرى فسأله أن يجعل له اكلًا وطعمة على أن يضمن له على بكر بن وائل ان لا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه فاقطعه الأبله وما والاها . . . » ولكن تلك الممالك والامارات والمشيخات العربية الحدودية، وكذلك حركة القبائل العربية في الصحراء قرب الحدود، كانت تحت المراقبة المباشرة لضباط «العشائر» الروم والفرس (الدهاقين)، تماماً كما كان الحال مثلاً أيام الانتداب الأجنبي على الأقطار العربية عندما كانت سلطات الانتداب تقيم ادارات خاصة وقوى خاصة لشؤون البادية والعشائر.

موقعة اليرموك: تختلف وتتناقض الصور المعطاة لهذه المعركة التاريخية الحاسمة، وبصورة عامة لفتوح الشام، في كتابات المحللين، العسكريين وغير العسكريين المعاصرين. فنجد مثلاً الجنرال كلوب (ابوحنك) يستخلص من اخبار مؤرخينا العرب والمسلمين «فتوحين» عربيين للشام، ومعركتين على اليرموك. اي ان العرب يرأي كلوب هزموا الروم على اليرموك واحتلوا سورية، ثم انسحبوا منها ليتجمعوا في اليرموك مرة ثانية ويهزموا الروم هناك ويعودوا مجدداً إلى احتلال سورية . . . وما لاريب فيه ان هذا الجنرال الذي كان يقوم بوظيفة «دهقان» لحكومته البريطانية أيام الاستعمار القديم، كان في تحليله متأثراً بأسلوب امته في كل الحروب التي خاضتها في تاريخها الطويل المخزي وهو الحصول على الانتصارات بنتيجة عدد كبير من الهزائم والانسحابات . . . ولكن بدماء الغير. هنالك مثلاً قول شاع في أوروبا في الحربين العالميتين الأولى والثانية وهو: ان الانجليز سيحاربون حتى أخرج رجل فرنسي. وكان مجمل ماكتبه حول جهاد المسلمين وتضحيتهم بارواحهم لاقامة عالم اخوة الانسان، وكل مافهمه من اهدافهم، لا يخرج عن تلك الصور التي نشأ وترعرع فيها، والتي كان واحداً من صناعها أيام خدمته الطويلة في «حرس حدود امبراطورية دولته» فتوهم أن اولئك الابطال الميامين الذين، على عكس قراصنة امته، غيروا بشورتهم الاسلامية بنية العالم إلى الأفضل، يشبهون أولئك البدو البؤساء المقهورين الذين كان يقودهم، والذين امتصت دولته دماء اهليهم وقطعت عنهم الطرق التاريخية لرزقهم طوال قرون مديدة حتى برت منهم اللحم ودقت العظم. فراح في «بحثه» القذريروي سيرة الهوان التي سار بها بعض عرب جاهليتنا المعاصرة في ركاب دولته

الاستعمارية، على أنها سيرة أولئك الامجاد العظام الذين لاشبيه لهم ابداً في تاريخ نظامه الرأسمالي العبودي المخزي .

وهنالک من يُرَكَّب من اخبار الفتوحات الاسلامية صورة أخرى، يختصر فيها واحدة من «معركتي» اليرموك فيجعلها يرموكاً واحدة إلا أنه يصر على ان فتح الشام (حتى حمص على الأقل؛ جرى مرتين، وكانت اليرموك بينهما في عهد عمر بن الخطاب . وهذا ما يناقض تماماً هذا الرأي بذاته . فمما لا خلاف عليه ان الصديق هو الذي امر خالد بن الوليد بأن يسارع بنصف قوات العراق مدداً لجند الشام . وهذا الجند لم يكن بحاجة إلى ذلك المدد لولا أن هرقل حشد قوة هائلة هزمها المسلمون في اليرموك وليس من المعقول أن تكون هذه الهزيمة قد وقعت بعد سنتين في عهد الخطاب . وليس هنالك حشود كبيرة بهذا القدر إلى اليرموك غير مرة واحدة، كما لم تكن هنالك نجدات للمسلمين بهذه الأهمية غير هذه النجدة التي تقابل تماماً تلك الحشود . فإذا كانت اليرموك الكبيرة الوحيدة قد حدثت في آخر عهد الصديق، فإن فتح الشام الذي اتى بعدها يكون الوحيد ولم يعقبه انسحاب من هذا القطر ليعاد فتحه مرة أخرى بعد معركة كبرى على اليرموك لا وجود لها: في جميع الفرضيات تم بعد معركة كبرى على اليرموك فتح للشام، فإذا لم يكن هنالك إلا معركة يرموك كبرى واحدة فإن ذلك الفتح يكون أيضاً وحيداً . وليس من المعقول ان يخلي العرب الشام دون تهديد جدي لجيوشهم، ولم يحدث هذا التهديد إلا مرة واحدة انجدهم فيها الصديق بخالد بن الوليد، ثم تتالت الاحداث بالصورة المشار إليها قبل هنيهة . وما تجدر ملاحظته ان من يقول انه كانت هنالك معركتان على اليرموك، واحدة في عهد الصديق والأخرى في عهد الخطاب، يعطينا لوقوع هاتين المعركتين اسبوعاً واحداً في شهر واحد في سنتين مختلفتين: الأولى في لأسبوع الأخير من شهر آب ٦٣٤، والثانية في الأسبوع الأخير أيضاً من شهر آب ٦٣٦، وكأن العرب والروم كانوا يتواعدون على اللقاء في ذات المكان وذات الزمان في كل سنتين . . وهذا امر بعيد الاحتمال، وهنالك احتمال كبير لخطأ في تعيين السنة تردد في اخبار هذه العركة طوال قرن: من وقوعها إلى زمن تدوين اخبارها مع اخبار الفتوحات الاسلامية، حتى صارت في النتيجة معركتين . ونحن مع هذا الفرض، ولكننا لانفي مواجهة، بل عدداً من المواجهات الثانوية بين العرب والروم على اليرموك بالذات وفي منطقته، قبل

ان يقوم هرقل بحشده الهائل عندما استشعر خطر ضياع سورية من امبراطوريته .
 إن المؤرخين العرب والمسلمين ما قصرُوا ابدأً في السعي إلى اعطاء الصورة
 الصحيحة الصادقة لاحداث تاريخنا الاسلامي . فاولئك البحاثه لم يوجد لهم مثيل
 بعد في الاناة والصبر والجد وتحمل المشاق الكبيرة في استقصاء الأخبار التي دونوها
 وحفظوها لنا، لاسيما عندما نأخذ بعين الاعتبار ظروفهم ووسائلهم البسيطة بالمقارنة
 مع وسائل عصرنا . ولا يعني هذا الاقلال من قيمة ماتركوه لنا (بالمقارنة مع مايكشفه
 الانسان حالياً من اخبار الماضي) فمصادرهم وقواعدهم التي التزموا بها في البحث
 كانت كافية، ولانقل في مردودها لتقصي الحقائق عن كثير مما كشفته الأثار في العصر
 الحديث . لاسيما عندما نأخذ بعين الاعتبار «الكذب» الذي كان كثيراً ما يدون على
 تلك الأثار لأغراض متنوعة . ثم ان الوسائل الجبارة المتوفرة في عصرنا كثيراً ما تستخدم
 للتضليل بدلا من استجلاء الحقيقة، لخدمة من يقهرون الانسان . ان مؤرخينا
 العرب والمسلمين كانوا يستقصون الخبر بكل اشكاله ومختلف رواياته المنقولة، بكل
 موضوعية وامانة دون ادخال اي تعديل عليها مهما كانت متناقضة فيما بينها أو غير
 معقولة . فالغاية عندهم هي عرض ماكان يتردد ويتداول بين الناس في جيل واحد،
 وما كان يتقل من جيل إلى جيل . وعلى القارىء أن يُكوّن بنفسه الصورة الأقرب
 إلى الواقع من مجمل روایات الخبر . وما كان هذا يمنعمهم من نقد بعض الروايات
 للخبر الواحد وابداء ميلهم إلى الأخذ بالبعض الآخر . ولكن هذا لايلزم القارىء،
 مادامت كل الروايات ومختلف الصور التي تُكوّنُها معروضة امامه وبإمكانه أن يجري تحليله
 الخاص به، وبالتالي ان يختار الصورة التي يراها اقرب إلى الصواب . وعلى هذا
 الاساس سنتناول اخبار اليرموك، فنحاول استخلاص الصور في اطار الواقع
 والمعقول .

اشرنا اعلاه إلى ان الروم اوكلوا إلى عملاتهم امراء ومشايخ الغساسنة مراقبة
 الحدود الصحراوية للامبراطورية وحمايتها، تحت اشراف قادة حامياتهم النظامية في
 قلاعهم على تلك الحدود وبمساعدة هذه الحاميات . ورأينا انه كانت قد وقعت
 اشتباكات بين الاسلام وبين الجملة الدفاعية الرومية الأنفة الذكر في عهد الرسول
 ﷺ، وبعد وفاته مباشرة عندما ذهب جيش اسامة بن زيد إلى الاردن . وقلنا أن
 اولئك الامراء والمشايخ الغساسنة المرتبطين بالروم كانوا ينظرون بقلق وغيظ شديدين

إلى تصاعد القوة الاسلامية وتناميها، لأن من شأن هذه القوة الجديدة ان تسد عليهم ابواب الجزيرة العربية وتقطع صلاتهم بها، الأمر الذي يقضي قضاء مبرماً على وظيفة اساسية كانوا يقومون بها لحساب الروم، وهي كما قلنا اعلاه: مد النفوذ الرومي في هذه الجزيرة البالغة الأهمية من الناحية الاقتصادية. وكان هنالك امر على غاية من الخطورة وهو ان العرب العاديين من الغساسنة ومن الآخرين المرتبطين بنفوذهم بكيفية مافي الأردن وفلسطين وسوزية كانوا ينظرون بفخر واعتزاز إلى هذه القوة الجديدة التي تقف نداءً لاسياد امرائهم ومشايخهم الروم، والتي تنادي بمبادئ انسانية طالما طمحوها هم وابناء عمومتهم من بقية سكان تلك الأقطار إلى أن يروها تقوم في يوم من الأيام في الواقع الدنيوي كما «تقوم في صفحات الكتاب المقدس». وهامهم يشاهدون قيامها بالفعل في الجماعة الاسلامية الناشئة والمتنامية، فكانوا يتمنون قرب اليوم الذي يتاح لهم فيه رؤية هذا الأمر عندهم. لذلك رأينا أولئك الأمراء والمشايخ يفعلون ما باستطاعتهم لمقاومة الدعوة وعرقلتها والدس عليها، فقتلوا كما مر معنا رسول النبي الحارث الأزدي إلى امير بصرى وتهيؤوا اكثر من مرة لغزو المدينة: منها مثلاً عندما رد الحارث بن شمر الغساني امير عذرة (بين دمشق والضمير) بفظاظة رسول النبي إليه يدعوه إلى الاسلام، وقام يمرض قيصر كي يسمح ويساعد على تجهيز جيش من الغساسنة واتباعهم لغزو يثرب فلم يستمع اليه. وكان هذا منه تعقلاً وحكمة، إذ تجنب الانجرار إلى مغامرة مجهولة العواقب في الصحاري العربية، وهو بالكاد كان حينذاك قد انهى حرباً دامت ربع قرن مع الفرس استرد فيها مصر وسورية واجزاء اخرى من الامبراطورية، بالاضافة إلى ماتخللها من فتن واضرابات داخلية طوال قيامها، وفي الأزمة التي قامت بعد غزوة العسرة حاول أولئك الأمراء والمشايخ الغساسنة الدس بين المسلمين، فكتب مثلاً ملكهم إلى احد المخلفين الثلاثة، وهو كعب بن مالك، يقول له: «أما بعد فإنه بلغني أن صاحبك (وهو يعني النبي: من عندنا) قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ومضيعة فالحق بنا نواسيك*». كما عملوا على صلب صاحب ايلة لأنه عاهد النبي عليه السلام، وقد مر معنا خبر هذا العهد. وعندما وزع الصديق الألوية على امراء الجيوش في ذي القعدة ووجههم

* التجريد الصريح المار ذكره للزيدي ج^٢ ص ١٠٣.

لقتال المرتدين عين خالد بن سعيد بن العاص اميراً على كتيبة ارسلها إلى تيماء لمراقبة تحركات اولئك الامراء والمشايخ الغساسنة اثناء حروب الردة كي لا يباغتوا المسلمين . ولمراقبة منطقة وادي القرى ايضاً ، ومشارف الشام من الجزيرة العربية حيث يوجد بقايا يهود خيبر وكذلك قبائل نصرانية يمكنها ان تقوم باعمال تشكل خطراً على المسلمين في المدينة . ففي مثل هذه الظروف التي ينشغل فيها المسلمون بحرب الردة الواسعة في الجزيرة لا يكون لحجم القوة العدو اهمية بمقدار تصميمها ، ذلك لأن بإمكانها عندما تتجاوز من الشام الحدود وتتجه إلى المدينة ، ان تتضخم ، ككتلة الثلج الهابطة من اعلى الجبل على طريق ثلجي ، بما ينضم إليها من كل اولئك المتربصين والمستائين وطالبي الغنائم وغيرهم . وقد بلغ خالد بن سعيد بالفعل أن البطريق ماهان جمع جيشاً «من العرب التابعين للروم من بهراء وسليح وكتب ولخم وجدام وغسان ، وأنه سائر نحوه لقتاله»* إلا أن القائد العربي المذكور لم يقف جامداً ، بل تقدم بإذن من الخليفة من تيماء إلى الاردن وقاتل اولئك الأعداء ، في عدد من المعارك .

وجه الصديق في شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشرة هجرية (شباط ٦٣٤) اربعة جيوش لتحرير بلاد الشام ، في الوقت الذي كان فيه المسلمون ، منذ نهاية حروب الردة ، يشتبكون مع الفرس بجيشين ، احدهما بقيادة خالد بن الوليد في جنوب العراق ، والآخر بقيادة عياض بن غنم في شمالي العراق . وكانت جيوش الشام كما يلي :

١ - جيش عمرو بن العاص ، إلى فلسطين عن طريق ايلة (ام الرشراش) ووادي عرابة .

٢ - جيش شرحبيل بن حسنة إلى الأغوار الشمالية من الأردن .

٣ - جيش يزيد بن ابي سفيان إلى البلقاء .

٤ - جيش ابي عبيدة عامر بن الجراح إلى حمص .

وكان كل جيش يتألف في بادىء الأمر من ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم ازداد تعدادها بما كان يرسل إليها الخليفة من امدادات حتى اصبح كل واحد منها سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل . وقد وضع الصديق بهذه المناسبة قاعدة للقيادة ، فأمر ان يكون

* سيرة الخلفاء للخضري ص ٤٦ .

امين الأمة ابو عبيدة الجراح مرجعاً في كل امر يخص الجيوش الأربعة معاً، لاسيما في حالة اجتماعها في منطقة واحدة لاتعود إلى واحد منها. أما إذا اقتضت الظروف ان تجتمع كل هذه الجيوش في منطقة مخصصة إلى واحد منها، فإن امير هذا الجيش يكون هو القائد العام لأنه يكون اكثر من غيره معرفة بشؤون منطقتة، وتكون بقية الجيوش بمثابة المدد له.

هذا مجمل ماتفق عليه اخبار فتوح الشام بصورة عامة، ولكن المعلقين والباحثين المحدثين لايتفقون حول اسباب توزيع القوة الاسلامية حينذاك إلى الجيوش الأربعة المذكورة، مع اختلاف اهدافها. فكلوب مثلاً قال ان هذا كان لتجنب التنافس والغيرة بين قادة تلك الجيوش، إلى جانب سبب آخر هو ان الطريق إلى الشام كانت موارده لاتتحمل ثقل جيش يتألف من مجموع تلك الجيوش الأربعة. ونحن هنا لانكلف انفسنا بالرد على السبب الأول المزعوم، فهو جدير بقذارة تفكير هذا المستعمر الحاقد الذي عزل وطرد من بلادنا في يوم من الأيام. أما السبب الثاني فينم عن رأي غريب لا يستقيم حتى لضابط غر. . . ذلك لأن مجموع هذه الجيوش في البدء ماكان يتجاوز كما قلنا الاثني عشر الف جندي. كما أن المسافة بين الجيش والآخر كانت مسيرة يوم واحد. اي ان تلك الجيوش كانت عملياً جميعها في آن واحد على هذا الطريق «تستنزف موارده» إذ ماكان يكفي يوم واحد لتعويض ما استنزفه كل جيش سابق، من تلك الجيوش الأربعة، من الماء والطعام والمؤنات الأخرى، كي يجد مايكفيه منها الجيش اللاحق. ثم ان الرسول عليه السلام سار على هذا الطريق بجيش تعداده ثلاثون الف جندي حتى تبوك. وهو كما نعلم كان طريق قوافل يغص بالقرى والمراكز التجارية. ونعلم ايضاً أن الجيوش والقوافل كانت حينذاك تحمل مايكفيها من الزاد لبلوغ غاية الطريق، وقد سبق ووضحنا هذا الأمر بشيء من التفصيل. أما السبب الحقيقي فهو واضح من اختلاف اهداف هذه الجيوش وتباعدها، بحيث لايمكن ربطها بعضها ببعض إلا بالشكل الفذ المرن الذي اشرنا إليه اعلاه عندما تكلمنا عن القاعدة التي امر الصديق باتباعها لتعاون تلك الجيوش.

إن الطريق الذي يصل مصر بالأناضول، والذي يمر من البلاد والأمكنة التالية: القنطرة - غزة - الرملة - مجدوا - بيسان - طبريا - الحولة - وادي التيم -

بعلبك - حمص - حماة - شيزر - جسر الشغور - انطاكية الخ . . يكاد ينطبق في سورية الطبيعية على خط الانهار الثلاثة : نهر الأردن ، ونهر الليطاني ، ونهر العاصي . لذلك كانت الجيوش الكبيرة تتبع هذا الطريق ، جيئة وذهاباً ، فهو طريق المياه الوفيرة : «سار تحتمس على رأس جيشه بسرعة عشرين ميلاً في اليوم ، عن طريق القنطرة وغزة ، والتحم بالقوات الثائرة عند مجدو ، وهذه بلدة صغيرة منيعة (تصل سهل الرملة بسهل يبسان وتطل على هذا الأخير من فتحة عمر تقع على بعد عشرين كيلومتراً إلى شمال غرب جنين ، على طريق حيفا : من عندنا) . وقد وقعت في هذه البلدة عدة وقائع حربية من ذلك اليوم إلى ايام الجنرال النبي (في الحرب العالمية الأولى : من عندنا)* و «قضى رعمسيس الثاني ثلاث سنين في اخضاع فلسطين ، ثم واصل زحفه والتقى عند قادش (على تل النبي مند على بحيرة قطينة قرب حمص : من عندنا) بجيش من الأحلاف الاسيويين»** . وعلى هذا الطريق وقعت معارك الاسلام الظافرة الحاسمة : اجنادين ، اليرموك ، حطين ، عين جالوت . وكان أيضاً طريق المسافرين عبر سورية إلى القسطنطينية فذكره مثلاً امرؤ القيس في قصيدته الشهيرة : «بكى صاحبي . . .» . وحمص نقطة سوقية حاسمة على هذا الطريق ، لأنها أيضاً منطلق تفرعات طرق هامة اخرى تذهب إلى الحوضه الدمشقيه وإلى النقاط الحساسة على الخط الدفاعي للامبراطورية الرومية ، كتدمر ، والقريتين ، وعذرة ، وشها ، وبصرى ، وخط هذه المدن الأخيرة هو الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في البلاد الشامية عند مجيئه من العراق .

ونستخلص من الملاحظات السابقة بسهولة الخطة السوقية للصدى عندما ارسل تلك الجيوش الأربعة إلى اهدافها الأنفة الذكر :

أولاً : يراقب عمرربن العاص وشرحبييل بن حسنة خط الأغوار من ايلة إلى طبريا ، لرد كل محاولة رومية لقطع طريق المدينة المنورة إلى بلاد الشام حتى حمص ، وهذا الأمر مهممة اساسية . وعند الامكان ودون الاخلال بهذه المهمة الاساسية تدمير كل قوة رومية في فلسطين والاستيلاء على ما أمكن من بلاد فيها .

* قصة الحضارة ج ٢ ص ٧٩ .

** المرجع السابق .

ثانياً: الاستيلاء على البلقاء بجيش يزيد بن ابي سفيان والتقدم حتى دمشق بعد ضرب وتشيتت قوات الحدود الرومية النظامية وغير النظامية من القبائل العربية الموالية للروم .

ثالثاً: تقدم جيش ابو عبيدة الجراح إلى حمص والاستيلاء عليها لقطع طريق النجدات الرومية الذي اعطينا وصفه اعلاه . وبالإمكان تطوير الوضع هنا في الظروف الملائمة والاستيلاء على خط : تدمر - حمص - طرابلس ، وبالتالي اتمام قطع سورية الجنوبية (سورية الطبيعية) بأجمعها عن الامبراطورية الرومية : اتمام قطع كل السبل التي تصل الجنوب السوري بشماله بقطع الطريقين الآخرين (الصعبين على كل حال على تحرك الجيوش الثقيلة كالجيش الرومي) وهما الطريق الصحراوي (تدمر - بصرى) وطريق الساحل (طرابلس - صيدا) .

رابعاً: اتمام تنظيف المناطق الجنوبية من سورية من القوات الرومية النظامية ، وكل القوات الأخرى الموالية للروم .

وقد تم تنفيذ الاجزاء الاساسية من هذه الخطة بعد انزال الهزيمة بقوات الحدود الرومية التي مر ذكرها قبلاً اكثر من مرة: طارد عمرو بن العاص ويزيد بن ابي سفيان مثلاً قوات رومية كانت تحاول التصدي لهما، وانزلا بها خسائر جسيمة وطاردا فلولها إلى غزة . كما هزم ابو عبيدة الجراح قوة رومية في الطفيلة ، وتقدم إلى الجابية في حوران ، ثم اخذ طريقاً يمر شرق دمشق ووصل الى حمص واحتلها، في الوقت الذي انتشرت فيه قوات يزيد وشرحبييل في حوران ومنطقة دمشق . ومن المؤكد ان الجيوش العربية اشتبكت مع قوات العدو بعدد من المعارك والمناوشات فشئتت بعضها واخضعت بعضها الآخر . وكان بعض تلك المعارك قرب اليرموك او عليه ، وهذا الذي دفع بعضهم الى الظن بأنه كانت هناك «معركتا يرموك» ، لا واحدة حاسمة كما وقع بالفعل .

وكان استرداد الروم للبلاد الشامية من ايدي الفرس قريب العهد عندما وصل العرب لتحريرها نهائياً . وظن الروم في بادىء الأمر ان قواتهم الحدودية كافية للتغلب على العرب وردهم . ولكن انهيار دفاعاتهم تلك بسرعة ووصول العرب الى حمص واحتلالهم لها ، وبالتالي قطعهم شريان الامبراطورية الرئيسي في اخطر موقع منه ، الشريان الذي يربط الشام ومصر بالاناضول ، ذكرهم بالكارثة التي حلت بهم عندما

احتل الفرس القطريين المذكورين مع اجزاء كبيرة من الأناضول قبل عقدين من السنين. فأرأوا ان تلك الكارثة توشك ان تتكرر مرة اخرى، ولكن على ايدي العرب في هذه المرة. لذلك اسرع هرقل بحشد قوات هائلة «يغرق» بها الجيوش العربية الأربعة.

وكان للعرب شبكة استعلامات ممتازة، اقاموها عند وصولهم إلى البلاد الشامية، فبلغهم ذلك الذي كان يعده هرقل لمنازلتهم. فتكاتب قادتهم الأربعة وتشاوروا في الأمر، فأرأوا ان من الأفضل لهم التخلي عن حصص، وعودة قوات ابي عبيدة إلى الجابية، حيث تلتقي هناك بقوات يزيد وشرحبيل. ولكي لايقطع طريق المدينة من ايلة او اي مكان آخر من شرقي نهر الأردن، يبقى عمرو بن العاص في وادي عرابة لمراقبة الأغوار. وطلبوا إلى ابي عبيدة ان يكتب إلى الخليفة بالأمر ان يطلب اليه امدادهم. ذلك لأن المنطقة التي انتشرت فيها الجيوش الاسلامية من البلاد الشامية كانت حينذاك غير محررة تماماً، فما زالت فيها مواقع هامة بيد الروم ويد من يواليهم، كدمشق مثلاً، وفلسطين، ومعظم مواقع الحدود من تدمر إلى بصرى. فمن الأفضل اذن التجمع في تلك المنطقة من الطريق المؤدي الى المدينة، لحماية مجنبات ومؤخرات الجيوش الاسلامية من الأعداء المتربصين. وتقول اخبار الفتوح الاسلامية ان الذي اشار على العرب بالتجمع هو عمرو بن العاص.

وتلقى الصديق رسالة ابي عبيدة التي يشرح فيها الموقف في الشام، وما اتخذته القادة من تدابير لمواجهة هذا الوضع، فعلق عليها بقوله: «والله لانسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».*

وكتب الى امراء جيوش الشام بالموافقة على تدابيرهم، وبتعيين خالد بن الوليد قائداً عاماً عليهم. وكتب إلى خالد في العراق بأمره بالسير إلى الشام بنصف جنده، أي بعشرة آلاف مقاتل، بعد أن يستخلف هناك المثنى بن حارثة*. وقد غادر خالد العراق في شهر صفر عام ١٣ هجري الموافق نيسان ٦٣٤ م. وقام برحلته الاسطورية، فقطع الصحراء الشامية من قراقر في العراق الى تدمر في سورية على خط مستقيم:

* الطبري ج ٢ ص ٦٠٣.

* الطبري ج ٢ ص ٥٨٤.

جنوب شرق - شمال غرب ، خلال اقل من خمسة ايام (وليس كما ورد في بعض الأخبار على طريق القوافل الذي يسير نحو الجنوب الى الحدود الشمالية للجزيرة العربية ماراً بدومة الجندل ثم يميل شمالاً الى تدمر) . ووصل الى مكان اجتماع جيوش المسلمين في اليرموك في اوائل شهر ايار عام ٦٣٤ م ، بعد ان اخضع الحاميات الحدودية مثل تدمر والقريتين ، وعذرة وغيرها ، واشترك في فتح بصرى مع شرحبيل بن حسنة . وهذه المواقع هامة ، لاسيما منها الأخير ، لأنها كما اشرنا اليه في مناسبات سابقة ثغور على الصحراء فهتدد مواصلات الجيوش العربية الذاهبة الى المدينة ، وتهتد مؤخرات هذه الجيوش التي كان يستند ظهرها الى الصحراء المذكورة . وهذا ، حسب مانعتقده ، الى جانب السرعة ، من اسباب اختيار خالد لذلك الطريق الشهير في الصحراء : كي يأتي الى تدمر المركز الحدودي الفائق الأهمية من الناحية العسكرية بالنسبة الى الامبراطورية الرومية ، والى بقية الثغور الأخرى حتى بصرى ، كي يعمل على تحييدها أو قمعها . وليس كما ظن بعض المحللين (ومنهم كلوب الذي جعل خالداً يسير الى الشام على ذلك الطريق الجنوبي الذي اشرنا اليه اعلاه) لاستدراج الروم خارج حصونهم في اليرموك . ذلك لأن استدراجهم لاقتفاء اثره من اليرموك الى تدمر البعيدة بكل اثقالمهم على طريق صحراوي جاف امر بعيد الاحتمال لا يفكر به قائد مثل خالد .

قلنا ان هرقل اسرع بحشد قوات هائلة عندما شاهد انهيار دفاعات الامبراطورية الجنوبية وقطع شريانها (طريق الماء المار ذكره) عند حمص . وتقول اخبار الفتوحات انه حشد لكل جيش من الجيوش العربية الأربعة قوات تفوقه اضعافاً مضاعفة . ويروي خبر ان الروم ثبتوا جيوش المسلمين في الأمكنة التي كانت فيها . فشقيق القيصر تيودور وقف بحسب الخبر المذكور امام عمرو بن العاص بجيش تعداده ستون ألفاً . اما شرحبيل فاستقبله الدارقي على رأس اربعين ألفاً . واستقبل جرجة بن ندره جيش يزيد . ولو كان الأمر بهذا الشكل لما استطاعت الجيوش العربية ، لاسيما منها جيش ابي عبيدة الذي كان في حمص ، ان تنسحب لتجتمع في منطقة حوران . كما ان ضخامة قوات الروم الأنفة الذكر تجعل من الصعب تمييز الواحد منها من الآخر لو حصل تثبيت الجيوش العربية في حوران بالشكل المتفرق الذي يرويه الخبر . والأقرب إلى الواقع هو : ان هرقل وجه اهتمامه الأول الى استرداد حمص

باسرع ما يمكن ليفتح الطريق التاريخي ممر الجيوش الكبيرة الى جنوب البلاد الشامية والى مصر، طريق المياه العذبة المار ذكره اعلاه . فوجه في البدء اول جيش كبير حصل بيده وهو ذاك المار ذكره اعلاه وتعداده ستون ألفاً . ولكن هذا الجيش لم يجد امامه اي اثر للمسلمين في حمص ، فاستمر في سيره نحو الجنوب ، بناء على اوامر هرقل ، وهو يتبع طريق الانهار في وادي البقاع الشمالي والجنوبي ، ثم سهل الحولة ، فالجولان ، فاليرموك . وتالت الجيوش الرومية على هذا الطريق للتحذ من مواقعها الى جانب الجيش السابق تجاه العرب في منطقة الجابية . اما جيش ابي عبيدة فقد اخذ في تراجعه من حمص الى الجابية الطريق الداخلي الذي ينطبق تقريباً على الطريق الحالي الذاهب من حمص الى درعا ، والذي ماكانت في العادة تسلكه جيوش الامبراطوريات القديمة ، وانما تتركه لقواتها الخفيفة ، لحرس الحدود مثلاً المؤلف جله ايام الامبراطورية الرومية من الغرب المواليين لها .

إن العرب عندما تجمعوا في حوران ، لم يأخذوا مواقعهم في اليرموك قبل ان يأتي الروم الى هذه المواقع ويحلوا فيها ، لأن ذلك كان من شأنه ان يوقعهم في الحصار ويقطعهم عن الجزيرة العربية قاعدة امدادهم ، بعد ان يقيد حركتهم ويحد من مجال مناوراتهم . وكان بإمكان الروم ان يأتوا من البقاع الى الشام فحوران ، إلا أن هذا الطريق كان شديد الوعورة والجفاف بالنسبة لضخامة جيوشهم ، بالاضافة الى ان جبهتهم تجاه العرب في هذه الحالة لا تمتاز بشيء عن تلك التي حصلت عندما اتخذوا مواقعهم في اليرموك :

١ - ان قيامهم في اليرموك يقيهم مرتبطين بخطوط مناورات الجيوش الكبيرة والثقيلة في تلك الأيام ، بخطوط الأنهار والسهول الخصبة المتصلة بعضها ببعض من الأناضول حتى مصر .

٢ - ان اليرموك نهر كبير يصلح لاقامة جيوش كثيفة وثقيلة ، المدة التي يشاؤها قادة هذه الجيوش .

٣ - توفر هذه المنطقة مواقع دفاعية جيدة .

وقد توالى امدادات الروم على اليرموك طوال اشهر صفر وربيع اول وربيع آخر من عام ١٣ هجري . ويقول احد اخبار الفتوحات الاسلامية ان وصول خالد من

العراق الى اليرموك صادف وصول ماهان مدداً للروم هناك* . وكان الوضع يتلخص كما يلي :

الجهة العربية : بعد انهيار الدفاعات الحدودية الرومية في شرقي الأردن ، ثم من بصرواحتى تدمر سيطرت الجيوش العربية عملياً على كل تلك المناطق التي كان معظم سكانها من العرب او من ابناء عمومتهم والتي تضم الى جانب شرقي الأردن حوران وحوضه دمشق والقلمون الجنوبي الشرقي وامتداده الى تدمر . وكانت دمشق مازال موالية للروم ولكنها لا تشكل اي تهديد للجيوش العربية من الناحية العسكرية لعدم وجود اية قوة فيها تستطيع التحرك منها للقيام باعمال هجومية . اما فلسطين ، بعد ان هزمت ودمرت فيها كل القوات التي كانت تستطيع القيام باعمال تعرضية من قبل جيش عمرو بن العاص ، فإن ما بقي فيها من حاميات عسكرية كانت بالكاد تكفي للدفاع عن مدنها والمحاصرة فيها .

الجهة الرومية : كانت لهم فقط تلك «النافذة» على المنطقة الأنفة الذكر التي كان يسيطر عليها العرب ، وهي نافذة اليرموك الذي كانت جيوشهم تراكم حوله ، ومن ورائها بقية الامبراطورية الرومية . ان هذه الصورة (التي كانت للموقف العسكري حينذاك بين الجهتين المتصارعتين) على غاية من الأهمية ، إلا أنها لا تبرز بشكل جيد عند كثير من المحللين المعاصرين ، بل ان كلوب مثلاً اعطى ، عندما تكلم عن اجنادين ، صورة للجيوش العربية المارة بالقرى والمدن العربية في شرقي الأردن وكأنها ارهاط من البدو الغريباء تمر بشكل عارض في تلك الأراضي ، تماماً كالبدو الذين كان يقودهم هو لخدمة اغراض دولته الاستعمارية ، وليس كمحررين يحملون رسالة تنال اعجاب ومحبة اولئك السكان . ويتساءل الإنسان عن تصورات هؤلاء المحللين حول المعارك التي خاضتها الجيوش العربية للقضاء على الحاميات الرومية في تلك المنطقة التي اشرنا إليها قبل هنيهة . فهل كانت لمجرد العبث فما كان لها اي هدف؟ كما زعم مثلاً كلوب عندما قال

* سيرة الخلفاء للخضري ص ٤٩ .

ان تلك «الجيش راحت تزحف مدفوعة بغريزتها في الميل إلى القتال في المناطق الصحراوية . . .»* .

من الواضح ان مثل هذه التصورات هي العبث، اما تلك المعارك التي خاضتها الجيوش العربية للقضاء على الدفاعات الحدودية الرومية فكانت لاهداف استراتيجية توختها القيادة العربية لتضمن لجيوشها اوسع مجال لكل مناورة محتملة، واوسع هامش امان حولها في كل ظرف طارىء .

وكانت هذه القيادة بداهة تعرف انها تقابل الامبراطورية الرومية بكل احتياطاتها الهائلة، كما كانت متأكدة من انها ستصطدم بهذه الاحتياطات في طور من اطوار المعركة . لذلك رأينا ، حسب كل اخبار الفتوحات العربية، ان انسحاب جيشها من حصص وتوجهه الى الجنوب نحو سهل حوران لم يعطل ابداً اتمام تحقيق ذلك الهدف الاستراتيجي : اتمام عملية ازالة «الأسوار» الجنوبية للامبراطورية المذكورة، ووضع كل تلك الأراضي المشار إليها اعلاه تحت اشرافها، وحصر الروم في تلك «الناذة» الوحيدة المظلة على هذه الأراضي، حصرهم في اليرموك . وقد مر معنا كيف ان خالداً عند مجيئه من العراق فتح واخضع كل تلك المواقع الحدودية من منطقة تدمر الى منطقة بصرى مروراً بمنطقة دمشق، وشارك في فتح بصرى مع شرحبيل، وكان كل هذا بعد الانسحاب من حصص . فتشكل اذن الفترة السابقة، المحصورة بين وصول الجيوش العربية إلى البلاد الشامية، وبين تحرير بصرى، الطور الأول من حرب تحرير البلاد الشامية، طور تدمير القوات الحدودية الأنفة الذكر واسقاط النظام الدفاعي الحدودي للامبراطورية الرومية في المنطقة والتمركز بقوة في الأردن وسهول حوران وشرقي حوض دمشق حتى منطقة تدمر، مع الاشراف على فلسطين . وهذا الطور قد تم بنجاح تام وليس كما قال بعض المعلقين : «ان تدابير هرقل المضادة ادت إلى فشل كل مارسمه ابوبكر في خطته، اذ عجزت الجيوش العربية عن القيام بعمليات . التطويق الواسعة التي رسمتها تلك الخطة؟! . . .» . ان التطويق يكون في العادة لجيوش، وهذا المحلل بذاته يقول ان هرقل حشد قواه الهائلة «بعد حركة التطويق هذه» . . . فأى شيء كانت الجيوش العربية تطوق اذن؟! . . ان

* الفتوحات العربية الكبرى بقلم جون باجيت كلوب ص ٢٥٤ .

كل اخبار الفتوحات تتفق، والمنطق العسكري يتفق معها، على ان تلك الجيوش العربية لم تصادف في طريقها في البدء سوى قوات متفرقة (وإن كانت كبيرة) من حرس حدود الامبراطورية الرومية، إذا ان هرقل ماكان قد حشد قواه الاساسية حينذاك.

واتبع العرب طوال الوقت الذي سبق المعركة الفاصلة اسلوب الغارات السريعة على مواقع الروم، ثم الارتداد إلى مواقعهم المنتشرة حول منطقة اليرموك: في وعرات اللجاء والزاكية، وحول جبل حوران، وفي منطقة بصرى. وما لاريب فيه أن الروم كانوا يخرجون من آن إلى آخر بقوة من مواقعهم للبحث عن العرب. فكانوا يردون مرة إلى مواقعهم في اليرموك، ومرات اخرى لايجدون اي اثر للعرب الذين كانوا يتعدون بخفة وسرعة في اعماق الصحراء والوعرات. فكان موقفهم يتلخص بوجودهم تجاه عدو غير محدد في المكان، يظهر ويختفي كالاشباح بسرعة فائقة، وما كان باستطاعتهم تحقيق اي التحام كبير معه في مكان مناسب. ونعتمد ان الروم كانوا في البدء يحاولون دوماً استدراج العرب الى التحام كبير في اليرموك يثبتهم هناك، بينما تسرع قوة كبيرة منهم تسحق جيش عمرو بن العاص في وادي عرابة، ثم تتقدم الى البلقاء لتقطع عليهم طريق العودة إلى جزيرتهم. وكان العرب في المقابل يرفضون الدخول في مثل ذلك الالتحام الكبير في اليرموك قبل تطور الظروف في فلسطين بحيث يزول من ناحيتها كل خطر يهدد اتصاهاهم بالجزيرة، وبحيث يمكنهم استدعاء عمرو بن العاص ليشارك بجيشه في المعركة الفاصلة على اليرموك.

ثم ان الزمن كان يعمل لصالح العرب. فجيش الروم كان من الأغرأب عن المنطقة، إلا من بعض العملاء العرب (على خيولهم بقيادة الملك الغساني جيلة بن الأهم). كانوا خليطاً من الأرمن واليونان الذين ما انفك تبأغضهم وتناحرهم عن التعاطف مع مرور الأيام، واشتداد الحرب بقدم فصل الصيف، وازدياد شوقهم الى اهلهم البعيدين في القفقاس والأناضول واليونان.

فإذا اضفنا إلى هذا غارات العرب وتحطفهم اياهم طوال الوقت، نجد ان القيادة العربية ناورت ببراعة لا مثيل لها، وبصبر وحكمة يناقضان تماماً ذلك «النزق» الذي يلصقه بهم الأعداء المتجنين والجهلة من المحللين. فلقد صبروا صبر المجاهدين حملة الرسالة الى العالم، وطبقوا بوعي مدهش تعاليم القرآن الكريم

بالاعداد للقوى الكبيرة والتصدي لها بالصبر والحكمة حتى تنقلب كثرتها بالظروف التي يعدونها لها قلة، وقتلهم كثرة:

﴿يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾

(آل عمران ٢٠٠)

ويستبعد بعضهم ان يكون العرب بتلك القلة التي تروىها اخبار فتوحاتهم، وان يكون الروم (او الفرس) بالاعداد الكبيرة التي تروي عنهم ولكن هذا البعض، ومنهم عرب ومسلمون، لا يستبعدون مثلاً الخبر الذي يقول ان تعداد جيش الاسكندر كان ثلاثين الفاً امام مليون جندي لجيش دارا في اربيل . . وقد تكون هنالك مبالغت في اخبار الفتوحات العربية كما في اخبار فتوحات الاسكندر. ولكن الكثرة ماكانت ابداً سبباً كافياً ولازماً للظفر، ولطالما كانت سبباً في الهزائم الكبرى: بازدهامها وفوضاها وتعطيل بعضها بعضاً. ثم ان المسلمين كانوا اصحاب رسالة ثورية لتحرير الانسان من العبودية والقهر فهم كما قال الخليفة الصديق لجنود الشام عندما استنجدوا به: «ان مثلكم لا يؤتى من قلة وانما يؤتى من الذنوب فاحترسوا منها» والذنوب كانت تعني على الأخص في ذلك العهد الابتعاد عن القواعد الصحيحة: المادية والروحية، وبعبارة اخرى: التقصير في أداء حق الجهاد في اشكاله المطلوبة في اوقاتها المحددة. .

وتغير الموقف وانقلب رأساً على عقب عندما قررت القيادة الرومية مهاجمة جيش عمرو بن العاص والعمل على سحقه في وادي عرابة، والتقدم من هناك (ربما إلى ايلة فالبلقاء) لقطع بقية الجيوش الاسلامية عن المدينة، ومحاصرتها بين شرقي الأردن وبقية الجيوش الرومية في اليرموك، والعمل على مطاردتها وابطادتها. فوجهت لذلك جيشاً كبيراً تعداده تسعون الف مقاتل بقيادة البطريق اربطون. واتبع هذا الجيش الطريق الذي اشرنا اليه آنفاً أكثر من مرة، طريق المياه والسهول الزراعية. فمر من طبرية الى سهل بيسان، فقيسارية بعد المرور من مجدو، ثم اجنادين بين الرملة وبيت جبرين حيث فوجىء بالجيوش العربية مجتمعة هناك. وكان هذا الجيش يعتمد على الاسطول الرومي في تموينه من ميناء قيسارية الأنف الذكر والواقع بين حيفا ويافا.

في هذا الطور الجديد من الحرب واجه العرب موقفاً كلاسيكياً طالما تردد في الحروب القديمة والحديثة، وهو موقف جيش تجاه جيشين عدوين يحاولان الاطباق

عليه بكماشة، فيتخذ قائده القرار المناسب لسحق الواحد ثم اتباعه بالآخر، كما حدث مثلاً على نهر يالو عندما حطم المتطوعة الصينيون مع الكوريين الشماليين جيشي ماك آرثر الأميركي في الحرب الكورية عام ١٩٥١، هذين الجيشين اللذين وصفهما المراسل الحربي لجريدة الموند الفرنسية بقوله حينذاك: «انها أقوى واكمل جيشين شاهدهما الانسان طوال تاريخه...». فعندما بلغ علم القيادة العربية تحرك جيش البطريق الى فلسطين، اصدر خالد امره الى قادة الجيوش العربية، في منطقة اليرموك وفي وادي عرابة، بالتوجه الى اجنادين. وقاد هو بنفسه مسيرة جيوش اليرموك، بعد أن ترك في حوران نحو عشرة آلاف جندي كرداء امام الروم لمشاغلهم، ريثما ينتهي من امر ارطوبون الأنف الذكر. والطريق الذي سلكه ليصل الى اجنادين غير معروف، لكنه يجب ان يكون اقصر طريق ممكن (لايلتقي مع طريق الجيش الرومي)، لأنه وصل إلى ارض المعركة قبل عمرو بن العاص الذي كان موجوداً غير بعيد عن هذه الأرض في وادي عرابة. فإذا لاحظنا أن الوقت كان صيفاً (حوالي أواخر شهر تموز)، حيث تكون مياه الأردن قليلة، ومخاضاته سهلة العبور، جاز لنا ان نعتقد ان ذلك الطريق كان على العموم كما يلي: بصرى - المفرق - وادي الزرقاء - جرش غورابي عبيدة - مخاضات الأردن حول منطقة دامية - غور الفارعة في مدخل الوادي المؤدي إلى نابلس - المنافذ المؤدية إلى الطريق بين نابلس والبيرة حول بيت دجن وبيت فوريك - البيرة رام الله - عمواس اللطرون - اجنادين. وميزة هذا الطريق الاساسية، إلى جانب قصره وسهولته، هي ان الجيوش العربية تبدأ بالمسير شرقاً إلى منطقة المفرق، وكأنها تقوم بخروج اعتيادي لها إلى الصحراء، ثم تختفي في وادي الزرقاء: العريض، والعميق، والغزير المياه. وهو يتجنب القدس فيمر على نحو خمسة عشر كيلومتراً إلى شهاها عند البيرة. فبالامكان ان نعتقد، في هذا الفرض، ان الروم في اليرموك ما انتهوا الى هذه الحركة إلا بعد ان وصلت الجيوش العربية الى اجنادين، وانهم ماقدروا حجم القوات التي قامت بها، وخطورة نتائجها إلا بعد هزيمة ارطوبون وابادة جيشه.

والتقى الجمعان في ٣٠ تموز ٦٣٤ م، ودام القتال بينهما يومين. وكان قتالاً جيبياً استبسل فيه العرب وصمد الروم لبعض الوقت ولكن خالداً زج في اليوم الثاني للمعركة كتلة الخيالة المؤلفة من بضعة آلاف مقاتل، فانقضت هذه الكتلة على قلب جيش العدو واخترقته إلى أن وصلت إلى قائدهم ارطوبون وقتله جندها، في الوقت

الذي كانت فيه المشاة العربية تعمل على توسيع الشجرة وراء الخيالة . ودبت الفوضى في صفوف الروم ، ومالبثت ان انقلبت الفوضى الى هزيمة رافقتها مذبحه رهيبة وقعت فيهم . ولاذوا بالفرار نحو القدس وبافا وغزة . ولاحقتهم خيالة المسلمين وقتلت منهم (حسب اخبار هذه المعركة) بقدر ما قتل من رفاقهم في المعركة . وكانت خسائر الروم نحو خمسين الف قتيل . اما خسائر المسلمين فكانت طفيفة لا تتعدى بضع مئات من القتلى .

وعاد خالد مسرعاً إلى اليرموك يرافقه جيش عمرو بن العاص ، بالاضافة إلى جيوش المسلمين الأخرى . فبعد ابادة جيش ارطوبون ، وارهاب كل الحاميات الرومية في فلسطين ، اصبح بالامكان سحب عمرو بن العاص من هذا القطر ليساعد على اليرموك . وكانت اخبار اجنادين قد طارت في ارجاء الامبراطورية طويلاً وعرضاً ، ووصلت الى جندها الباقين في اليرموك ، فازدادت حالة هؤلاء سوءاً ، وانحطت معنوياتهم الى الحضيض ، وخيل اليهم ان عذابهم قد تأبد في تلك الأرض الغربية التي لن تتركهم يخرجون منها حتى تبتلعهم في بطنها . وكتب خالد جيشه بنحو اربعين كردوساً ، كل واحد منها فيه الف مقاتل . وجعل على القلب ابا عبيدة الجراح ، وعلى اليمين عمرو بن العاص ، وعلى اليسرة يزيد بن ابي سفيان . وجعل شرحبيل بن حسنة احتياطاً للقلب ، كما وزع الفرسان إلى اربعة الوية ، ثلاثة منها بالف فارس خصصها لاقسام الجبهة ، لكل قسم لواء . والرابع باربعة آلاف فارس جعله كاحتياطي متحرك* . واخذ جيش المسلمين في الرابع والعشرين من آب ٦٣٤ م مواقعه امام الروم من طريق الجابية قرب نوى شمالاً الى جلين على اليرموك جنوباً* . وتقول اخبار الفتوحات ان خالد بن الوليد «خرج على الروم بتعبئة لم تر العرب مثلها» . وقد فسر بعضهم هذا القول بأن العرب قبل خالد ما كانت تعرف ما يشبه ذلك التنظيم في القتال . مع أن هذا القول يقصد به التقريظ فقط ، ولا تقصد حرفيته ، كقولك مثلاً : مارأيت شيئاً احسن من هذا قبل الآن ، وانت لاتعني إلا وصف هذا الشيء بالحسن فقط . وقد مر معنا ان العرب في حرب ذي قار (التي وقعت بين بدر واحد** والتي انتصروا فيها على الفرس) تكدسوا واقاموا جبهتهم على التنظيمات

* سيف الله خالد . للجنرال اكرم ص ٤٦٤ . ترجمة العميد الركن صبحي الجاهي .
** قلنا فيما سبق ان هذه الواقعة كانت قبيل الدعوة ، ذلك لأن الآراء في تاريخها تتضارب .

العسكرية المعروفة عندهم وعند غيرهم .

وكان الروم حينذاك شبه محصورين : أمامهم العرب ، وخلفهم وادي الرقاد وعلى يمينهم وادي اليرموك . يضاف إلى هذا ازدحامهم الشديد في جبهتهم التي طولها عشرون كيلومتراً ، في الوقت الذي يبلغ فيه تعدادهم أكثر من مائتي ألف مقاتل : لك متر مقاتل على عشر صفوف . وكان هنالك الألوف منهم مقيدين بالسلاسل . كل هذا كان يجد من قدرة ذلك الجيش . لا على المناورة فقط ، وإنما أيضاً على الحركة الطبيعية للانسان عندما كان الجنود يزحم بعضهم بعضاً عندهم . أما في هجماتهم الكثيفة فأنهم كانوا اهدافاً سهلة لسهام المسلمين . أما الحال عند العرب فكانت على العكس تماماً ، فهم وإن كانت ميسرتهم على اليرموك ، فإن مؤخراتهم كانت على اراض سهلية ، كما كان ازدحامهم قليلاً في الجبهة ، فكانت حركتهم ايسر واخف . وكانت معنوياتهم في الأوج بعد نصرهم العظيم في اجنادين . يضاف الى هذا شعورهم العارم بأنهم في تلك المعركة كانوا يؤدون رسالة انسانية كبرى ، وبالتالي مابعت فيهم هذا الشعور من شجاعة خارقة . وكانت قيادتهم تعمل حينذاك على اقتطاف الثمرات اليانعة لكل ما هيأته بصر واناة وحكمة من ظروف لذلك اليوم ، كما كانت تسير آخر خطواتها إلى النصر التاريخي العظيم بالعمل على تحطيم اقوى جيش في عالم تلك الأيام ، بعد تحطيمها الدفاعات الحدودية لأمبرطوريته ، وتحطيمها فرعه الآخر في اجنادين .

وقد افتتحت المعركة بسبر الجبهة الرومية من قبل المسلمين . فأمر خالد بن الوليد القعقاع بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل بأن ينشبا القتال* على مجنبي العدو بكتيبي فرسان . ولكن الروم الذين انتظروا طويلاً لقاء هؤلاء الأعداء ، الذين تجسّدوا فجأة امامهم بعد ان كانوا يروحون ويحيثون امامهم كالاشباح ، كانوا متشوقين الى انهاء المعركة على اي شكل ، وان امكن التعجيل بالانتصار . فقاموا بالهجمات الجبهية على المسلمين بمشاتهم : على القلب والمجنبتين . وكانت فكرة خالد ان يصبر عليهم

* سيرة الخلفاء للخضري ص ٤٩ . كما عدنا لدراسة الجنرال اكرم لهذه المعركة في كتابه الأنف الذكور : سيف الله خالد ، مع اختلافنا معه في تاريخ هذه المعركة ومقدماتها ونتائجها وبعض تفاصيلها .

حتى ينفذ جلداهم، فهو كان على علم بحالتهم النفسية. وبالفعل فقد دامت الهجمات الرومية بدون جدوى اربعة ايام، وردت جميعها بخسائر فادحة. وكان اليوم الخامس هادئاً استراح فيه الفريقان. وقد خالده ان وقت ايقاع الضربة الحاسمة قد اتى. فأرسل في ليلة اليوم السادس كتيبة فرسان بقيادة ضرار بن الأزور لترابط على الضفة الغربية للرقاد امام مخاضة على النهر. وفي الصباح امر بالهجوم العام. وقام هو على رأس لواء الفرسان المتحرك المار ذكره اعلاه بالالتفاف حول ميسرة الروم، في الوقت الذي كان فيه عمرو بن العاص يضغط بشدة عليها. وحاول ماهان ان يمد يد العون إلى ميسرته المتصدعة، ولكن خالد اسرع يطبق بفرسانه عليها، فاصلاً بينها وبين فرسان ماهان. وفي ذات الوقت فتحت امام ماهان فرجة بحركة خالد الأخيرة نحو الشمال الى سهول حوران. وكانت خيل الروم ثقيلة الحركة وغير مرنة في مناورات الميدان بالنسبة لخيل المسلمين الرشيقة السريعة، وإن كان كثير منها تحت فرسان عرب من جنود جيلة بن الأيهم، ولكنها ترهلت لطول معاشتها النظام الرومي. وتحت ضغط الفرسان المسلمين انهمز ماهان من الفرجة الأنفة الذكر خارجاً بذلك من ميدان القتال. وانهارت بعد هذا ميسرة العدو وفر جنودها، وكانوا من السلاف، نحو القلب فاقوعوا فيه الفوضى، وانهار بدوره. وبدأ الروم ينهزمون. فحاولوا في بادىء الأمر النزول في الرقاد وصعدت ضفته الغربية بعد عبور النهر من المخاضة إلا أنهم ردوا من قبل ضرار بن الأزور بعد ان وقعت فيهم خسائر فادحة من جراء سيل الحجارة والصخور الذي جرفهم على منحدر تلك الضفة التي حاولوا صعودها، أو بسيف المسلمين عندما تمكن بعضهم من بلوغ القمة هناك. ثم توقف الهرب من تلك الجهة واتجه خليط الميسرة والقلب الرومي نحو الميمنة التي تأخر تصدعها وتباطأ تراجعها بسبب السلاسل التي كانت تقيدها*. ولم يلبث ان تحول بعد هذا جيش الروم إلى كتلة بشرية متخبطة مبهمه الشكل. وكان العرب يدفعون بها من كل جهة نحوهاوية الواقوسة عند التقاء الرقاد باليرموك. وقامت مذبحه رهيبة على الهضبة. فتدافع الروم بالألوف نحو الهاوية هرباً من سيوف المسلمين، وسقطوا فيها. وكانت الخسائر

* كان من عادة الروم والفرس تقييد جنودهم بالسلاسل في مواقع معينة من جبهات القتال التي كانوا يخوضونها: كل عشرة مثلاً بسلسلة واحدة وذلك كي لا يتمكنوا من التلاجع.

فيهم هائلة من جراء ذلك، وخاصة بالجند المقيدين بالسلاسل الذين كانوا يجرون بعضهم بعضاً إلى الهاوية بسلاسلهم، أو كانوا يدفعون إليها بكتل الهاربين، الذين كانوا يسقطون معهم أيضاً.

وقد ارسل خالد قوات كافية من خيالة المسلمين تطارد ماهان الذي كان يتجه إلى دمشق ليحتمي فيها، فادركته تلك القوات قبل بلوغ هدفه. واشتبكت معه بقتال شديد قتل فيه هو والكثيرين من جنوده وتشتت الباقي.

وهكذا انتهت معركة كبرى من معارك الجهاد الذي غير معالم العالم ودفعه الى الأفضل، الى نظام الاسلام المتفوق، وان لم يدخل في عقيدة هذا الدين كثير من الناس. ولكن هذه العقيدة كانت اساساً لطور انساني جديد. ويقول بعضهم ان خسائر من كان يدافع عن العبودية في هذه المعركة ماكانت بالقدر الذي ذكره المؤرخون المسلمون، وهي: بين سبعين الف ومائة وعشرين الف قتيل. وبرأينا ان هذا التقدير متواضع. فلوان كل مسلم في اليرموك تسبب بقتل اربعة من الأعداء، لكان مجموع القتلى: اكثر من مائة وستين الف قتيل. وعلى كل حال: ان اقوى جيش في ذلك العالم العبودي ابعد على بكرة ابيه بقتل الكثيرين من جنده أو بتحطيم نظامه، على يد فئة قليلة مجاهدة.

ملاحظات حول الجهاد: نريد ان نلفت النظر مرة اخرى إلى أن بحثنا الحالي هو الجهاد في الاسلام: تعريفه واهدافه، وليس اعادة سرد السيرة النبوية وسيرة الخلفاء العظام في الاسلام. إلا أن الجهاد كركن اساسي في العقيدة الاسلامية وفي حماية دعوتها من معارضة قاهري الانسان على مر العصور توجد امثلته بداهة في الصفحات المشرقة التي حققها وجلاها ابطال الاسلام. فلا بد اذن من العودة إلى تاريخنا، لامن اجل اعادة سرد بعض وقائعه، وانما لابرار ابعاد الجهاد في تلك الوقائع. وعندئذ يجب علينا ان لاننسى ان تاريخ امتنا كان وما يزال موضع عمليات واسعة من التشوية والعبث بخليط من الدوافع الخبيثة: كحقد وكره الاعداء، وجهل وصغار وحقاقة بعض الأهل والاشياع. لذلك كان من أول واجباتنا في بحثنا ان نبذل كل جهد لتجنب الوقوع في الغيبيات، و«العنتريات»، وقصص الافتراء، والكذب التي يرويها البعض باسم «الموضوعية»، وطوفانات القصص الفردية التافهة التي تغرق

الجوهري: ان فتح دمشق مثلاً ارتبط بزعم بعض المؤرخين بقصة غرام تافهة لشخص اسمه يونان بن مرقص، خان اهله واعان خالد بن الوليد على فتح باب دمشق . . . وكان بلداً مثل دمشق في امبراطورية مثل روما الشرقية كانت ابوابها خالية من انظمة الحراسة، فكانت لذلك تحت رحمة «امزجة» عشاق من امثال صاحبنا يونان . . . ان الجهاد هو مجموعة افعال عظيمة لجماعات من الناس في نظام يقوم على عقيدة انسانية عالية، وهو يهدف إلى اهداف تاريخية مصيرية، عالمية أو محلية . وقلنا ان الجهاد في الاسلام غير العالم إلى الأفضل، فهل من المعقول ان يكون الذين قاموا به في صدر الاسلام كأولئك التعساء من البدو الذين قادهم كلوب (ابوحنك) بعض الوقت لخدمة اسياده في وطنه قاهري الانسان . . . ان من يكتب ذلك التاريخ يجب ان لا ينسى مدرسة محمد التي دامت ثلاثاً وعشرين سنة بنت فيها تلك العقيدة العالمية التي نعرفها، بنت فيها عقيدة الاسلام، وذلك كي لا تنزل به القدم ويقع في أوهام التاريخ بدلاً من واقعه . فنحن نرى ان أولئك الذين تخرجوا من تلك المدرسة العظيمة ما كانوا من الناس البدائيين، ولا من العاديين البسطاء، وانما كانوا يفوقون اعداءهم باشواط كبيرة بصفاء الذهن واتساع آفاق الرؤية، حتى وإن كان أولئك الأعداء روما وفرنساً . لذلك رفضنا عندما تناولنا اليرموك، كما نرفض في كل الأحداث الاسلامية الأخرى المشابهة، كل مافي الأخبار والتحليلات من اتجاهات تطمس التدبير الحاذق المسبق لأولئك القادة العظام بناء دار الاسلام، وتجعل افعالهم مجرد انعكاسات ظروف وصدف، في الوقت الذي حققوا فيه الانتصارات التي ماتزال حتى الآن تشعل نار الحقد والحسد في قلوب اعداء الانسان .

إن تحرير الشام، بالأطوار التي مر بها، مثال كامل على نوعية الانجازات الكبرى التي حققها أولئك الذين تخرجوا من مدرسة النبي عندما بنوا دار الاسلام، حجراً حجراً، بالصبر والحكمة والتضحية بالمال والنفس، وبكلمة أخرى: بنوها بالجهاد كما علمهم اياه الاسلام، وليس بالمعنى الذي تشدق ويتشدد به أولئك الذين «يقولون بافواهم ما ليس في قلوبهم»، أولئك الذين معنا بافواهم، ومع العدو الأميركي بقلوبهم فنجد مثلاً تلك الصفحات المشرقة في اليرموك تتكرر بجوهرها، وإن اختلفت اشكالها، في القادسية، وهاوند، وبلبيس، ثم في فتوحات العهد الأموي في الشرق حتى الهند والصين، وفي الغرب حتى اللوار. وكانت تلك المعارك

الكبرى التي خاضتها جيوش الاسلام تقع من اجل تحقيق شعارات لم يسمع لها مثيل صادق قبلها ولا بعدها: من فاتحين عبوديين قدماء او عبوديين رأسماليين محدثين. لم يفعل احد في التاريخ كما فعل المسلمون عندما بنوا دارهم فانصفوا الانسان وساووه بانفسهم وهم في اوج انتصارهم.

لابد لنا من التعليق على القصر المدهش للزمن الذي استغرقه بناء دار الاسلام، فالعرب كانوا في اسبانيا مثلاً عام ٩٣ هجرى. فنقول أن سبب ذلك كان قبل كل شيء آخرى يستقر في ان الدعوة كانت في صالح الانسان، في صالح الأكثرية الساحقة منه، لأنها كانت دعوة ضد القهر وعدوان الانسان على الانسان، وهي دعوة طالما تمناها الناس باكثريتهم في كل زمان ومكان من الأرض. وما كانت سيوفها وحرابها موجهة إلا إلى قلة فاسدة من الناس تشبه هذه القلة الظالمة المستعمرة القابعة في اميركا وفي غيرها من بلاد المستعمرين. فمن هو الذي لا يثنى زوال هذه القلة في ايامنا إلا ان يكون منها او من اتباعها وخدمها؟ لذلك فإن الزمن اللازم لازالة مثل هذه القلة عن عائق البشر لا يطول عندما يواجه نظامها بنظام مجاهدين مؤيد من اكثرية بني الانسان.

ولقد كان هنالك أيضاً الدفاع عن دار الاسلام ضد اعداء الانسان بعد ان تم بناء هذه الدار. كان هنالك الجهاد أيضاً باشكاله الكثيرة التي منها الجهاد بالسلاح لحفظ دار الاسلام. ومن ابرز تلك الاشكال كان الجهاد بالسلاح ضد طلائع عصر القهر والعبودية الجديدة، عصر الرأسمالية.

وقام في هذا الطور من التاريخ الاسلامي رجال يمكن ان يصنفوا في عداد كبار صحابة النبي عليه السلام من امثال نور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي، ليس فقط بما حققوه بايمانهم وشجاعتهم ومهارتهم من انتصارات كبيرة على اعداء الاسلام والانسان طلائع محاكم التفتيش، وانما بتجسيدهم لمعنى الجهاد بكل ابعاده بالحياة التي عاشوها.

وبعد، نحن اليوم، كما سبق وقلنا، في دار لاسلام قهرها اعداء الانسان وفي قلب هذه الدار بلادنا العربية المهضومة الحقوق. وقد علم التاريخ الانسان: ان الظالم لا يرد حقاً اغتصبه «بما لديه من ٩٩٪ من الحل». ولا بد من الجهاد ضده لاسترداد

الحق . ولكن استرداد الحق العربي ثورة انسانية كبرى لا بد من ان ينهار الاستعمار
العالمي بنتيجتها . لذلك كان وما يزال الجهاد قدرنا :
﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً
وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم
وانتم لاتعلمون ﴾

(البقرة ٢١٦)

حزيران ١٩٨١ م